حصاد الموت*
Making a killing**

في تحقيق خاص لصالح مجلّة إندكس قبل انتخابات المكسيك في العام المقبل، يعرض دانكان تاكر أشكال التهديدات التي طالت الصحفيين على مدى العقد الماضي

كان بابلو بيريز، وهو صحفي مستقل من مدينة مكسيكو، يقود سيارته عبر ولاية غيريرو الجنوبية الخارجة عن سيطرة القانون مع اثنين من زملائه من العاصمة، وأربعة من الصحفيين المحليين، عندما تم التعرّض لهم من قبل مجموعة من المسلحين. كان بيريز يعمل على تقرير عن السكان المحليين الذين نزحوا بسبب العنف المرتبط بعصابات المخدرات.

قال بيريز بعد وقت قصير من الحادثة الذي وقعت في 13 ايار / مايو "كنا قد غادرنا للتوّ المنطقة الاكثر خطورة ومرّرنا عبر نقطة تفتيش للجيش مما جعلنا نعتقد اننا في منطقة آمنة". وأضاف "ولكن لا، فعلى بعد ميل واحد فقط على الطريق أوقفتنا مجموعة تتألّف من 80 إلى 100 شاب، العديد منهم يحملون الأسلحة." ثم قال "قاموا بنهب سياراتنا وسرقوا كل ما لدينا من المعدات والمال وأوراق الهوية. أخذوا احدى سياراتنا وتركوا لنا السيارة أخرى. قالوا لنا إن لديهم مخبرين عند الحاجز وأنهم سيحرقوننا أحياء إذا ما أخبرنا الجنود بما حدث".

نجا بيريز وزملاؤه، كانوا مصدومين، لكنهم لم يصابوا بأذى. لكت غيرهم لم يكن محظوظا مثلهم. فلقد قتل 11 صحفيا في عام 2016، وعدد القتلى في عام 2017 في طريقه إلى تجاوز هذا العدد. وقد بدأت بعض الصحف بإدخال اجراءات أمنية متواضعة في محاولة منها لحماية موظفيها، في حين أن الحكومة قامت مؤخرا بالإعلان عن مكافآت لقاء معلومات عن أولئك الذين يقتلون الصحفيين. ومع ذلك، فمن غير المرجح أن يكون لهذه التدابير أثر كبير في مواجهة العنف والفساد وانعدام العدالة. فحرب المخدرات في المكسيك قد تسبّبت بمعدلات قتل قياسية في عام 2017، ومن المتوقع أن تؤدي انتخابات العام القادم إلى مزيد من عدم الاستقرار في جميع أنحاء البلاد، ومن غير المرجح أن تهدأ الهجمات على الصحافيين في أي وقت قريب.

يختلف مستوى المخاطر اختلافا كبيرا عبر مناطق المكسيك. فنادرا ما يتم استهداف المراسلين الأجانب، والسبب المحتمل وراء ذلك هو أنه قد يجلب ضغوطا دولية غير مرغوب فيها ضد المرتكبين. كما أن المكسيكيين الذين يعملون في المطبوعات القومية أو المطبوعات الكبرى في العاصمة هم محميون بعض الشيء من العنف. في المقابل، فان الصحفيين المحليين هم الذين يواجهون الخطر الأعظم. فوفقا للجنة حماية الصحفيين، فإن 95٪ من أولئك الذين قتلوا في أعمال انتقامية مباشرة تتعلّق بعملهم كانوا مراسلين في المناطق النائية حيث سيادة القانون

يقوّضها تفشي الجريمة والفساد. وتعتبر ولايات غيريرو و فيراكروز وأواكساكا الجنوبية حاليا من أكثر الأماكن خطرا، حيث قتل فيها ما لا يقل عن 31 صحفيّ منذ عام 2010.

على الرغم من المخاطر التي يواجهونها، فإن الصحفي المكسيكي العادي لا يجني أكثر من 500 جنيه إسترليني (650 دولار أمريكي) شهريا ويحصل على القليل من الميّزات. يقول بيريز "ليس لدينا أي تأمين طبي أو تأمين على الحياة. نحن معرّضون للأذى الشديد بسبب هذا العنف...ولكن أولئك منا الذين يعيشون في المدن الكبيرة هم أكثر أمانا بكثير من أولئك الموجودين في أماكن مثل غيريرو".
عند الذهاب الى النقاط الساخنة، يقول بيريز، لا يمكنهم فعل أي شيء سوى اعتماد بعض الاجراءات الأمنية الأساسية. "يحاول كل منا أن يبقى على اتصال مستمر مع الزملاء في المدينة، ولكن هذا صعب أحيانا لأننا غالبا ما نفقد إشارة الهاتف المحمول. كان الاجراء المتّبع هو البقاء معا، والبقاء على اتصال مع الصحفيين المحليين، والبقاء في حالة تأهب قصوى لأي من علامات الخطر".
وفي حين أنه يمكن للصحفيين من العاصمة أن يعودوا الى المناطق الأكثر أمنا، بعد تغطية المناطق الخطرة، فإن الصحفيين المحليين يتعرضون باستمرار لعواقب عملهم. وتبيّن ذلك بوحشية بالغة عندما قتل خافيير فالديز، أحد أشهر الصحفيين المكسيكيين، في ولايته سينالوا في 15 أيار / مايو. كان فالديز قد ترك لتوه مكاتب صحيفة ريودوس الأسبوعية، وهو مؤسّسها، عندما قام مسلحون بسحبه من سيارته وأجبروه على

<u>فضيحة واترغايت المكسيكية</u>

كشف تحقيق أجرته صحيفة سيتيزن لاب وصحيفة "نيويورك تايمز" هذا الصيف كيف أن بعض الرسائل المرسلة إلى الصحفيين وغيرهم كانت مصحوبة ببرامج تجسس "بيغاسوس" التي طوّرتها شركة إسرائيلية، هي أن.أس.أو. وقد أطلق على هذه الفضيحة في بعض الصحف "واترغيت المكسيكية".
وكان أحد مستهدفي البرنامج التجسسي هو رافائيل كابريرا، وهو عضو في فريق من الصحفيين التحقيقيين ترأسه كارمن أريستيغوي، والذين فقدوا وظائفهم في شبكة إذاعية وطنية بعد فضح الفساد الذي تورط به الرئيس إنريكي بينيا نييتو وزوجته أنجيليكا ريفيرا.
وقد تحدث معه مجلّة إندكس قبل عامين من تغطيته للفضيحة في شتاء عام 2015. في ذلك الوقت، كان كابريرا قد بدأ بتلقي رسائل نصية غامضة تحذّره من أنه يمكن مقاضاته وزملائه أو سجنهم بسبب تحقيقهم.
كانت الرسائل تحتوي على روابط واعدة بمزيد من المعلومات، لكن تخوّف كابريرا من فتحها في حالة احتوائها على فيروس.
وكان على حق. فكما اتضح، فان فتح الرابط كان من شأنه تمكين المرسلين للوصول إلى بيانات كابريرا، ورؤية كل ضغطة يقوم بها على هاتفه والوصول الى الكاميرا والميكروفون فيه دون معرفته.
وتقول مجموعة أن.أس.أو. إنها تبيع برامج التجسس بشكل حصري إلى الحكومات، بشرط ألا تستخدم إلا للتحقيق في أعمال المجرمين والإرهابيين. لكن التحقيق وجد أن أريستي وابنها المراهق قد تم استهدافهما أيضا، إلى جانب صحفيين آخرين، وقادة المعارضة، ونشطاء مكافحة الفساد، ودعاة الصحة العامة.
ردّ بينا نييتو بالقول أن القانون سيتم تطبيقه ضد أولئك الذين يقدّمون "اتهامات كاذبة ضد الحكومة". وقال متحدث في وقت لاحق في مقابلة مع صحيفة نيويورك تايمز: "بأي حال من الأحوال لم يكن الرئيس يحاول تهديد النيويورك تايمز أو أي من هذه الجماعات. كانت زلّة لسان من الرئيس".
بيد ان الحكومة اعترفت باستخدام برامج التجسس ضد العصابات الاجرامية، لكنها نفت التجسس على المدنيين. وقد تعهدت السلطات بإجراء تحقيق.
وقال كابريرا لإندكس انه لديه القليل من الثقة بأن تقوم الحكومة بالتحقيق الجدّي حول برامج المراقبة الخاصة بها. كما أعرب عن قلقه إزاء رد فعل بينيا نييتو الأولي. واضاف "انه ليس سليما ان يقول الرئيس انه سوف يتخذ اجراء جنائيا ضدك". واضاف "لقد زلّ لسانه وقدّم لنا لمحة عن الديكتاتور الكامن داخله".

الركوع. أطلقوا عليه 12 رصاصة ثم فرّوا بعد سرقة هاتفه والكمبيوتر المحمول الخاص به، وتركوه جاثما على بطنه على قارعة الطريق. تلطخت قبّعته التي شهر بها بالدماء.

كان فالديز خبيرا في عالم الجريمة في سينالوا، منبع تجارة المخدرات المكسيكية. وكان أشهر صحافي يقتل منذ سنوات. عندما قابلته مجلّة إندكس قبل أشهر قليلة من اغتياله، تحدّث عن تهديدات ضد صحيفته، وأثار مسألة انعدام الحماية من قبل الدولة. قال حينها: "أفضل شيء هو أن آخذ عائلتي وأترك البلاد".

في الأسابيع التي سبقت وفاته، علق فالديز في تداعيات صراع دموي على السلطة داخل كارتل سينالوا المكسيكي. كانت أعمال العنف في المنطقة قد تصاعدت الى مستويات غير مسبوقة منذ تسليم زعيم الكارتل واكين "إل تشابو" غوزمان إلى الولايات المتحدة في العام الماضي، مما أدّى الى حرب بين أبنائه إيفان وألفريدو من جهة، ويده اليمنى السابق، داماسو لوبيز، من جهة أخرى، للسيطرة على الكارتل. عندما أجرى فالديز مقابلة مع وسيط أرسله لوبيز في شباط / فبراير 2017، اتصل أبناء غوزمان بغرفة الأخبار في صحيفة ريودوس وحذّروهم من مغبّة نشر المقال. عرضوا شراء كامل أعداد ذاك الأسبوع ، ولكن فالديز ظل ثابتا على موقفه الرافض. وعندما خرجت الصحيفة للتوزيع، تابع مسلحو الكارتل شاحنات التسليم حول كولياكان واشتروا كل نسخة منها. ويعتقد زملاء فالديز أن قرار نشر المقابلة هو ما كلّفه حياته في النهاية.

يقول ادريان لوبيز، محرّر صحيفة نورويستى، وهى صحيفة اخرى من سينالوا، ان وفاة فالديز تسببت "فى الكثير من السخط والغضب والخوف" في المجتمع المحلّي. وقال ان القتلة ارسلوا رسالة قوية للصحفيين والنشطاء المكسيكيين باستهدافهم شخصية معروفة، كأنهم يقولون: "اذا يمكننا قتل خافيير فإنه يمكننا قتل أيّ شخص نريد".

كما شهد لوبيز تدخلّا تحريريا من قبل عصابات المخدرات. في عام 2010، قام مسلحون بإطلاق 64 رصاصة على مكاتب صحيفة نورويست في مدينة مازاتلان الساحلية. وكان المهاجمون قد هدّدوا الموّظفين هناك عن طريق الهاتف بضع ساعات قبل الهجوم، وحثّوهم على لوم كارتل منافس على جولات العنف. وقال لوبيز "قررنا عدم نشر ما يريدونه لأننا نعتقد انه لا يمكن ان تقول نعم لهذه المطالب". واضاف "اذا قلت نعم مرّة واحدة فانه لن يمكنك ابدا أن تقول لا في المستقبل".

تم استهداف لوبيز في ظروف مماثلة لاستهداف فالديز في عام 2014، عندما احتجز رجال مسلحون سيارته في كولياكان، عاصمة الولاية. وسرق المهاجمون سيارته ومحفظته وهاتفه وكمبيوتره المحمول وأطلقوا النار عليه في ساقه. وقبلها بأسابيع، تعرّض مراسلو نورويست للتهديد والضرب أثناء تغطيتهم غوزمان وكارتل سينالوا.

وقال لوبيز ان صحيفته تعمل باستمرار على تطبيق اجراءات امنية افضل. وتوظف نوريستي محامين للإبلاغ عن كل تهديد يصلهم الى السلطات المعنية، وقد استعانوا بالمعالجين النفسيين لإعطاء الموظفين الدعم المعنوي. وقال لوبيز "ان العنف الذى نغطيه يوما بعد يوم ليس طبيعيا". "نحن بحاجة إلى مساعدة نفسية لفهم المزيد من هذه الأمور والصدمة التي قد يسببها العنف لنا".

<u>رشوة أو رصلصة</u>

يواجه الصحفيون المكسيكيون جميع أنواع التهديدات والضغوط المالية، بدءا من عصابات المخدرات وانتهاء بالجهات الفاعلة في الدولة. ووثقت مجموعة "المادة 19" 426 هجوما ضد الصحافة المكسيكية في عام 2016، بما في ذلك 11 جريمة قتل، و 81 حادثة اعتداء جسدي، و 79 حادثة تخويف، و 76 تهديدا مباشرا، و 58 حالة اختطاف، و43 حالة مضايقات.
زرعت الكارتلات عملاء في الغرف الإخبارية في المناطق التي تعاني من الجريمة، مخيّرة الصحفيين بين الرشوة والقتل. وكما قال الصحفي المشهور خافيير فالديز قبل أشهر من مقتله، فإن ذلك خلق حالة من الخوف وعدم الثقة داخل فرق الصحفيين وشجع على الرقابة الذاتية.
كما أن العديد من المنشورات تخاف من انتقاد الدولة فهي تعتمد بشدة على الإعلانات الحكومية. فلقد أنفقت الحكومة الفدرالية وحكومات الولايات ما يقرب من 1.24 مليار دولار على الإعلانات في عام 2015. ويقول المراقبون إن هذا شكل من أشكال "الرقابة الناعمة"، حيث تعيش المطبوعات مع التهديد الضمني بأن الحكومة قد تعاقب أي تغطية غير مؤاتيه من خلال سحب التمويل.

وقد قتل اكثر من 100 صحفي مكسيكي منذ عام 2000 واختفى ما لا يقل عن 23 اخرين. وقد ازداد عدد الصحفيين القتلى في كل من السنوات الثلاث الماضية مقارنة بالعام السابق، وقد يصبح هذا العام الأكثر فتكا بعد مقتل 10 صحفيين في الأشهر الثمانية الأولى من عام 2017 (حتى 23 آب / أغسطس). وكثيرا ما تكون السلطات المكسيكية متوّرطة في الهجمات. وقد رصدت منظمة مراقبة حرية الصحافة "أرتيكل 19" (المادة 19) 426 اعتداء ضد وسائل الاعلام في العام الماضي، أي بزيادة نسبتها 7٪ عن عام 2015، وعدّ مسؤولو الأجهزة الأمنية مسؤولين عن 53٪ من تلك الهجمات.

يقول محلل الأمن اليخاندرو هوب لمجلّة إندكس: "فشلت السلطات الاتحادية في التحقيق بشكل مناسب واحقاق العدالة في هذه الحالات. لقد خلقوا بيئة من الإفلات من العقاب مما سمح للاعتداءات على الصحافة أن تزداد وتنتشر".

بالأرقام

• قتل ما لا يقل عن 107 صحفيا في المكسيك منذ عام 2000. ومن بين هذا المجموع، هناك 99 رجلا و 8 نساء.

• من أيار / مايو 2003 إلى أيار / مايو 2017، اختفى 23 من الصحفيين في المكسيك.

• توّرط مسؤولون رسميون في 53٪ من الهجمات ضد الصحافة في عام 2016. بين عامي 2010 و 2016 تم التحقيق في 798 اعتداء على الصحفيين من قبل السلطات. ولم ينتهي الأمر إلا بإدانة ثلاثة محاولات.

• قتل أكثر من 000 200 شخص أو اختفوا منذ اندلاع حرب المخدرات في المكسيك في كانون الأول / ديسمبر 2006.

في يوليو / تموز 2010، أنشأت الحكومة مكتب المدعي العام للجرائم ضد حرية التعبير (فيدل) من أجل التحقيق في الجرائم المرتكبة ضد وسائل الإعلام. وقد قدمت الوكالة، التي لم تستجب لطلباتنا بإجراء مقابلات مع مسؤوليها، "أزرار الذعر" الى بعض الصحفيين المعرّضين للخطر وقامت بتثبيت كاميرات مراقبة في منازلهم. في بعض الحالات، عيّنت لهم حرّاسا شخصيين. ولكن بحلول نهاية عام 2016، قام المكتب بإدانة فقط ثلاثة أشخاص من منفذي الهجمات ضد الصحفيين من أصل ما مجموعه 798 محاولة.

في ضوء تفاقم العنف ضد الصحافة، أعلن الرئيس إنريكي بينيا نييتو في مايو / أيار 2017 تعيين مدير جديد لتنشيط مكتب فيدل. وفي الشهر التالي أعلنت حكومته عن مكافآت تصل إلى 1.5 مليون بيزو (83000 دولار) لقاء معلومات عن قاتلي الصحفيين.

أشار هوب إلى أن المكسيك أحرزت بعض التقدم فيما يتعلق بحرية الصحافة في العقود الأخيرة من خلال ظهور مواقع إخبارية مستقلة وتحسين وصول الجمهور إلى البيانات الحكومية. بيد انه قال ان هذه المكاسب جاءت في الغالب على المستوى الوطني بينما يظل الصحفيون في بعض المناطق يعملون "في بيئة اكثر تحديا".

وقال هوب إن الصعوبات الأكبر في هذا المجال تتعلّق بالعلاقات المعقّدة بين السلطات المحلية وعصابات المخدرات. وأشار في هذا السياق إلى حالة ميروسلافا برياتش، وهو مراسل محترم كان قد قتل في تشيهواهوا في نيسان / أبريل 2017 بعد التحقيق في الصلات بين السياسيين المحليين والجريمة المنظمة.

لا يوجد هناك الكثير من الأسباب التي تدعي الى التفاؤل. تستعد المكسيك لإجراء انتخابات عامة العام القادم، ولكن الجولات الانتخابية التي تم اجراؤها مؤخرا تخلّلتها اتهامات بتزوير الأصوات وترهيب الناخبين. وحذر هوب من أن الانتخابات يمكنها أن تعطل الاتفاقات القائمة بين العصابات الاجرامية والمسؤولين، مما يجعل عمل الصحفيين المحليين أكثر خطورة. ويتوقع أن تستمر موجة العنف الحالية طوال دورة الانتخابات القادمة "لأن المزيد من الناس سوف يكونون على الأرض لتغطية الأخبار من مناطق الصراع".

يعتقد بيريز ان الوضع لن يتحسن حتى تتصدّى المكسيك لثقافة للفساد والافلات من العقاب. وأشار في هذا السياق إلى قضية خافيير دوارتي، حاكم فيراكروز السابق وصديق الرئيس، الذي اعتقل في غواتيمالا في أبريل 2017 بعد ستة أشهر من اختفائه. كان قد قتل ما لا يقل عن 17 صحفي محلي واختفى ثلاثة آخرون خلال فترة ولاية دوارتي البالغة ست سنوات، لكنه لم يواجه أي تحقيق حتى تبين أنه اختلس ما يقدر ب 3 بلايين دولار من الأموال العامة. يتساءل بيريز "كم من زملائنا قد قتلوا دون أن يفعل المدعي العام أي شيء؟". ويضيف "إن أهم شيء يجب القيام به هو سجن جميع مسؤولينا الفاسدين. إذا لم تكن هناك أي عواقب لسرقة الأموال العامة، فكيف يمكننا أن نتوقع لأولئك الذين يعيقون حرية التعبير أن يقلقوا من أي عواقب لذلك؟"

أجرى هذا التحقيق دنكان تاكر، وهو صحفي يعمل في غوادالاخارا، المكسيك

*ظهر هذا المقال أولا في مجلّة "اندكس أون سنسورشيب" بتاريخ ١٤ سبتمبر/أيلول ٢٠١٧

**This article was originally published in Index on Censorship magazine on September 14, 2017